التحليل اللغوى عند
مدرسة اكسفورد

صلاح اسماعيل عبد الحق



صلاح اسماعيل عبد الحق

التحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد

التنوير

● صلاح اسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد.
● الطبعة الأولى: ١٩٩٣.
● الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر.
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ
الطابق السابع ـ تلفون: ٨٠٦٣٥٩ ـ
ص.ب. ٦٤٩٩ ـ ١١٣ ـ بيروت لبنان

مقدمة

(١) يضرب هذا البحث بجذوره في «فلسفة اللغة»، ويتخذ من «التحليل اللغوي» صدرا لعنوانه. وإلى جانب هذا وذاك يقف مصطلح ثالث هو «الفلسفة اللغوية»، فهل ثمة فرق بين هذه المصطلحات الثلاثة؟

الجواب نعم؛ إذ يجب أن نميز بين «فلسفة اللغة» من ناحية وبين «الفلسفة اللغوية» و«التحليل اللغوي» من ناحية ثانية. فلسفة اللغة هي محاولة لتقديم أوصاف فلسفية لملامح عامة في اللغة من قبيل الاشارة، والصدق، والمعنى، والضرورة المنطقية، ولاتتعلق بعناصر محددة في لغة بعينها -أو بالأحرى في لسان معين- اللهم إلا بصورة عارضة. وهي بذلك اسم لمبحث أو فرع من مباحث الفلسفة وفروعها، شأنها في ذلك شأن فلسفة التاريخ، وفلسفة العلم، وفلسفة العقل، الخ. وعلى هذا النحو فإن فلسفة اللغة ليست دراسة للغة بل هي حديث فلسفي «عن» اللغة، أو قل إنها تفلسف «حول» اللغة وليست من بين ما يقال «في» علم اللغة الذي هو دراسة علمية من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والنفسية والاجتماعية، الخ.

أما مصطلح «التحليل اللغوي» فيرادف مصطلح «الفلسفة اللغوية» في الدلالة. فإذا استعمل احدهما أو كلاهما فلا يعني سوى «منهج» لحل مشكلات فلسفية عن طريق العناية بالاستعمال العادي لكلمات معينة ترتبط بالمشكلة المطروحة للبحث. ويعتقد الفيلسوف اللغوي بأنك تستطيع حل مشكلات فلسفية تقليدية معينة عن طريق فحص منطق التعبيرات العادية التي تستعمل في مناقشة هذه المشكلات، مثل فحص الاستعمال العادي لكلمات «شك» و«يقين» و«المعرفة»، وهلم جرا، في حالة النزعة الشكية Scepti-cim وفحص الاستعمال العادي لكلمات من قبيل«ارادي»، و«لا ارادي»، «يستطيع» عند حل مشكلة حرية الارادة. وقد تطور منهج «التحليل اللغوي» إلى حد بعيد في العالم الانجلو ساكسوني وبلغ مداه في العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين، ولا يزال يحتل حتى يومنا هذا مكان الصدر والمحراب من فلسفة العالم الناطق بالانجليزية.

(٢) حملت إلينا الفلسفة المعاصرة عدة تيارات فلسفية متباينة، غير أن أبرزها هو الاتجاه التحليلي الذي طغى على هذا العصر الأمر الذي حدا بمورتن وايت إلى أن يسمه

باسم «عصر التحليل»، فما هي الفلسفة التحليلة، وما هي اتجاهاتها الرئيسية؟

يستخدم «التحليل» من حيث هو مصطلح فلسفي ليعني المعنى ذاته الذي تستعمل به كلمة تحليل في اللغة العادية أي تفتيت أو فك المركب إلى أجزائه التي يتكون منها. ويستعمل التحليل عادة في مقابل «التركيب». ولا يفيد التحليل معنى واحدا فقط، بل يدل على معان كثيرة متباينة، لعل أهمها:

١ ـ تحليل المفاهيم والأفكار بغية اكتشاف المبدأ الكامن وراءها كما هو الحال عند سقراط وأفلاطون وأرسطو.

٢ ـ تحليل الفكر والمعرفة إلى عناصرها الحسية الأولية، مثلما فعل لوك وباركلي وهيوم.

٣ ـ تحليل اللغة دلالة وتركيبا، كما هو الحال عند فلاسفة التحليل المعاصرين أمثال مور ورسل وفتجنشتين والوضعية المنطقية ومدرسة كمبردج ومدرسة أكسفورد.

وهكذا فإن عملية التحليل ـ من حيث هي منهج فلسفي ـ كانت موجودة منذ سقراط، أي أن التحليل قديم قدم الفلسفة. ولكن، ما إن هَلَّ علينا القرن العشرون حتى طرأ على الفلسفة من التغير في وجهة النظر ما بلغ حد «الثورة»، وكان مور ورسل ثم فتجنشتين قادة تلك الثورة الفلسفية التي عرفت باسم «الفلسفة التحليلية». ولكن ما هو المقصود بالفلسفة التحليلية؟

ليس من اليسير تقديم تعريف دقيق للفلسفة التحليلية بحيث يجمع في عبارة واحدة جميع الخصائص التي تتميز بها تلك الفلسفة، وذلك لأن رجالات هذه الفلسفة لايتفقون تمام الاتفاق على دوافع التفلسف وأهدافه. وحتى إنْ كان ثمة اتفاق بينهم على أن الفلسفة تحليل في جوهرها، فإنهم يمارسون هذا التحليل لدوافع متباينة إلى حد بعيد. ولعل هذا هو ما دفع بعض المؤرخين إلى البحث عن ملامح أو خصائص رئيسية تتميز بها هذه الفلسفة على اختلاف تياراتها وتباين مواقفها. وها هو سكوليموفسكى يذهب إلى أن «الفلسفة التحليلية» اسم يطلق على نوع من فلسفة القرن العشرين تتميز بالخصائص التالية[1]:

(١) د. محمد مهران: فلسفة برتراند رسل، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٢.

١ ـ اعترافها بدور اللغة الفعال في الفلسفة، أو ـ بعبارة أخرى ـ ما يمكن أن نسميه اتجاهها الشعوري المتزايد نحو اللغة.

٢ ـ اتجاهها إلى تفتيت المشكلات الفلسفية إلى أجزاء صغيرة لمعالجتها جزءا جزءا.

٣ ـ خاصيتها المعرفية.

٤ ـ المعالجة البين ذاتية Intersubjective لعملية التحليل.

يمكن القول بأن الفلسفة التحليلية تدل على مواقف كثيرة متنوعة لعل أهمها موقف مور، رسل، وفتجنشتين، والوضعية المنطقية، ومدرسة أكسفورد. فما هو مفهوم التحليل عند هؤلاء.

(٣) يعد جورج مور إمام الفلسفة التحليلية، فبداية حركة التحليل ترجع إلى مقاله «تفنيد المثالية» ١٩٠٣؛ إذ ثار فيه ضد المثالية الهيجلية والمثالية الجديدة التي بدأت تظهر في انجلترا منذ عام ١٨٧٠ متمثلة في فلسفة برادلي وبوزانكيت وتوماس هل جرين، كما كانت متمثلة من قبل في فلسفة باركلي. على أن أهمية مور كإمام لفلسفة التحليل المعاصرة لتعود إلى المنهج الذي ابتدعه واستخدمه في معالجة مشكلات الفلسفة. ولعل رودلف ميتس قد أصاب في قوله بأننا لوقارنا منهج مور بمضمون تعاليمه لما كان لهذه الأخيرة أهمية كبيرة. فكثيرا ما نجده ينبذ «النتائج» السابقة، ويود لو أعاد تأليف كتبه من جديد وهو يدفع بها في طبعة جديدة[٢].

نظر مور في المشكلات التي يزخر بها تاريخ الفلسفة ـ وفي مجال الأخلاق بصفة خاصة ـ فوجد أنها ترجع أساسا إلى سبب غاية في البساطة، ألا وهو محاولة الاجابة على أسئلة معينة دون أن نتبين حقيقة السؤال الذي سنجيب عليه. فلو حاول الفلاسفة اكتشاف المعنى الحقيقي للاسئلة التي يطرحونها قبل أن يشرعوا في الاجابة عليها، فإن المحاولة الجادة قد تكفي لضمان النجاح. وإذا تمت هذه المحاولات الجادة فستتلاشى معظم المشكلات الخادعة وستختفي أصعب الخلافات الفلسفية[٣].

---

(٢) رودلف ميتس: الفلسفة الانجليزية في مائة عام، الجزء الثاني، ترجمة د. فؤاد زكريا، مراجعة د. زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٥٤٤.

(٣) See Moore, G. E. principia Ethica, Cambridge University press, 1948, preface, p. vii.

لم يكن غريباً - إذن - أن ينصب جهد مور الفلسفي على تحليل أقوال الفلاسفة بغية اكتشاف ما فيها من أخطاء ومغالطات وإزالة ما يكتنفها من غموض أو لَبْس. وهذا هو ما عبر عنه بوضوح في السيرة الذاتية التي كتبها عن حياته، عندما كتب يقول: «إنني لا أظن أن العالم أو العلوم كانت لتوحي إليَّ بأية مشكلات فلسفية. أما ما يوحي بالمشكلات الفلسفية فهي أشياء قالها فلاسفة آخرون عن العالم أو العلوم، ففي كثير من المشكلات التي أوحي إليَّ بها عن هذا الطريق وجدتني - وما زلت أجدني - شغوفاً بالبحث كأشد ما يكون الشغف. وكانت المشكلات موضع البحث من نوعين رئيسيين: الأول منها هو مشكلة الوصول إلى درجة حقيقية من الوضوح فيما يتعلق بشيء قاله فيلسوف معين أو ما قصد إليه بما قاله. والنوع الثاني هو مشكلة الكشف عن الأسباب الحقيقية الكافية لافتراض أن ما قصده كان حقاً، أو على العكس، كان باطلاً. أظن أنني قد بذلت حياتي كلها محاولاً حل مشكلات من هذا النوع[٤]».

وفي رده على لانجفورد Langoford حاول مور الكشف عن منهجه التحليلي. وذهب مور إلى أن لانجفورد قد أخطأ عندما افترض أن التحليل الفلسفي ينصبُّ على العبارات اللغوية أو الألفاظ. إذ الهدف المحوري الذي يرتكز عليه التحليل عند مور ليس هو تحليل التعبيرات اللفظية، بل تحليل المفاهيم أو القضايا. وطالما أننا نعبر عن المفاهيم والقضايا في إطارات لغوية، فلا مندوحة لنا عند تحليل هذه المفاهيم والقضايا من تحليل العبارات والكلمات التي تُساق فيها. وعندما يتناول مور المفاهيم بالتحليل، فإن تحليله لايزيد على كونه منصباً على ما تعنيه العبارات اللغوية. ولعلَّ الذي دفع مور إلى إنكار اهتمامه بتحليل العبارات اللغوية هو افتراضه أن تحليلاً هذا شأنه سوف يكون نمطياً Syntactic خالصاً.

ليس المقصود بالتحليل عند مور ترجمة عبارة إلى عبارة تساويها في المعنى، بل لا بدَّ أن تجيء العبارة الثانية أكثر وضوحاً في المعنى من الأولى. إذ يمكن أن نحلل عبارة (مفهوم) «الحسن أخو الحسين» لو أبرزنا العناصر التي تنطوي عليها كلمة «أخو» فنقول: «ان الحسن والحسين ذكران، والأبوان اللذان أنجبا الحسن هما الوالدان اللذان أنجبا الحسين». وعلى هذا النحو تجيء العبارة الثانية تحليلاً للأولى، بينما لا تكون الأولى تحليلاً للثانية. وقد عبر ويزدم عن هذه العملية التحليلية بإيجاز في قوله: «إنك تحلل

(٤) Moore, G. E., «An Autobiography» in The Philosophy of G.E. Moore, edited by schlipp, P. A., 2nd ed, Tudor publishing Company, New York, 1952, P. 14.

القضية «ق» إذا وجدت عبارة أخرى مثل «ق» تكشف عن مكنون «ق ١» ومعناها أكثر من «ق» نفسها»[٥].

أشار مور - يحذو في ذلك حذو لانجفورد - إلى المفهوم الذي يتم تحليله بوصفه موضوع التحليل analysandum، وإلى المفهوم - أو مجموعة المفاهيم - التي تتم به عملية التحليل بوصفه عناصر التحليل analysans. ووضع مور خمسة شروط يجب توافرها في تحليل المفهوم أو القضية حتى يكون مقبولا وهي[٦]:

١ - لا يستطيع المرء معرفة أن موضوع التحليل ينطبق على شيء ما لم يعرف أن عناصر التحليل تنطبق عليه.

٢ - لا يستطيع المرء أن يتحقق أن موضوع التحليل يتم تطبيقه ما لم يتحقق من أن عناصر التحليل يتم تطبيقها.

٣ - أي تعبير يعبر عن موضوع التحليل يجب أن يكون مترادفاً مع التعبير الذي يعبر عن عناصر التحليل.

٤ - التعبير المستخدم لعناصر التحليل يجب أن يذكر بوضوح المفاهيم التي لم يذكرها التعبير المستخدم لموضوع التحليل.

٥ - التعبير المستخدم لعناصر التحليل يجب أن يذكر الطريقة التي ترتبط بها المفاهيم التي يذكرها موضوع التحليل.

(٤) لقد تابع رسل زميله مور في الثورة ضد الهيجلية مستخدماً المنهج التحليلي. ولكن، على الرغم من اتفاقهما في هذه الثورة، فقد كان لكل منهما نقطة بداية مختلفة؛ إذ انصبَّ اهتمام مور على القول باستقلال الواقع عن المعرفة، ورفض كل الجهاز الكانتي الخاص بالحدوس والمقولات «الأولية» التي تشكل التجربة وليس العالم الخارجي، وقد وافقه رسل على ذلك متحمساً، إلاّ أنه كان أكثر اهتماماً من مور ببعض الأمور المنطقية البحتة، وعلى وجه الخصوص نظرية العلاقات الخارجية. ولعل هذا يرجع إلى تأثر رسل بالتعارض الذي رآه قائماً بين العلم المعاصر والميتافيزيقا المثالية، بينما كانت نقطة بداية

(٥) Wisdom, J.,«Moore's Technique», in The Philosophy of G. E. Moore, p. 425 .

(٦) Ayer, A.J., Russell and Moore, The Analytical Heritage, Macmillan, London, 1971, pp. 221-222 .

مور التعارض بين نظرة الحس المشترك للعالم والنظرة المثالية له[7].

وعلى حين يتفق مور ورسل على القول بأن الفلسفة تحليل في جوهرها، نجد أن هدف التحليل عند مور يختلف عنه عند رسل. فإذا كان هدف التحليل عند مور ليس اكتشاف حقائق أو معرفة جديدة عن العالم، بل توضيح ما نعرفه بالفعل، فإن من بين أهداف التحليل عند رسل ازدياد معرفتنا بالعالم الخارجي.

بدأ رسل باتخاذ موقف مور من الحس المشترك، واعتقد بأن كل شيء يقرر الحس المشترك - غير متأثر بفلسفة أو لاهوت - أنه واقعي فهو واقعي. ولكن رسل تخلى عن هذا الموقف بعد ذلك ونبذ القول بصدق اعتقادات الحس المشترك. «فإذا كان مور يعد الحس المشترك نوعاً من المطلق الابستمولوجي، فإن رسل لا يعده سوى صورة فجة غير منقحة للمعرفة العلمية. إذ أن العلم يذهب - في اعتقاده - إلى أبعد مما يذهب إليه الحس المشترك وكان يهدف في فلسفته للوصول إلى ما اعتقد أنه الدقة واليقين العلمي، وكان يأمل أن يجمع بين منهج ليبنتز - أي التجريبية والعقلية - لكي يكتشف إطاراً ميتافيزيقيا تتلاءم داخله مكتشفات العلم والسهولة العقلية، فإذا لم يكن هذا النسق متفقاً مع ما يقول به الحس المشترك لكان هذا أمراً سيئاً بالنسبة لهذا الأخير»[8].

إذا كان مور قد ذهب إلى القول بصدق اعتقادات الحس المشرك، فإنه قد رأى أن تحليل اللغة العادية يفضي بنا إلى إثبات ما يعتقده الحس المشترك. ومن هنا أخذ يحلل القضايا الفلسفية التي يتم التعبير عنها باللغة العادية بقصد تحديد ما تعنيه هذه القضايا على وجه الدقة. وهذا على خلاف رسل الذي نقد اللغة العادية بحجة أنها عاجزة عن التعبير بدقة عن المفاهيم العلمية، فضلاً عن أنها كثيراً ما تضللنا بنظمها السيء وبألفاظها الغامضة. فاللغة العادية تخلط بين الشكل النحوي للعبارات والشكل المنطقي لها. فقولنا مثلاً «الخيل لاتخور» و«العنقاوات ليست موجودة» عبارتان لهما صورة نحوية واحدة، لكن على حين تنفي العبارة الأولى أن كائنات معينة (هي الخيل) تتصف بصفة معينة (هي الخوار)، نجد أن العبارة الثانية لا تنفي أن العنقاوات تتصف بصفة الوجود، بل إنها تقول بالأحرى إنه ليس من بين الكائنات في العالم ما تتصف بكونها عنقاء. وطالما أن الصورة النحوية للعبارات مضللة على هذا النحو ولا تكشف عن الصورة المنطقية الحقيقة التي

(٧) د. محمد مهران: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٨) د. محمد مهران: المرجع السابق، ص ٢٥.

تعبر عنها العبارات، فلا مندوحة لنا من أن نستبدل بها تعبيرات ذات صورة منطقية صحيحة، ولعل هذا ما جعل رسل يحاول وضع لغة منطقية أو مثالية.

(٥) ويُعَد فتجنشتين الرائد الثالث من رواد الفلسفة التحليلية إلى جانب مور ورسل، بل إن الفلسفة من حيث هي تحليل لتتضح كأشد ما يكون الوضوح في فلسفة فتجنشتين، فهو يستخدم التحليل بوصفه منهجاً في الفلسفة لا كغاية فلسفية. ويقترب مفهوم فتجنشتين للفلسفة من مفهوم مور لها إلى حد كبير، وذلك على خلاف تصور رسل لها إلى حد ما. فإذا كان مور يرى أن مهمة الفلسفة هي توضيح ما نعرفه بالفعل وليس إضافة معرفة جديدة، فإن الفلسفة عند فتجنشتين فاعلية تنصبُّ على التوضيح المنطقي للأفكار، فنراه يقول: «إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار. فالفلسفة ليست نظرية من النظريات بل هي فاعلية. ولذا يتكون العمل الفلسفي أساساً من توضيحات. ولا تكون نتيجة الفلسفة عددا من القضايا الفلسفية، إنما هي توضيح للقضايا. فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة، وإلاّ ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة - إذا جاز لنا هذا الوصف»[٩].

وهكذا تتلخص وظيفة الفلسفة عند فتجنشتين في توضيح منطق اللغة والفحص الدقيق لكيفية عملها، إذ أن العجز عن فهم طريقة عمل لغتنا يفضي بنا إلى نوع من «القلق اللغوي» Linguistic anxiety الذي يكشف عن ذاته في محاولة الفلاسفة طرح الأسئلة الميتافيزيقية والاجابة عليها. وإذا وضعنا أصابعنا على بؤرة الداء ومنبع القلق، فسرعان ما تنحل المشكلات الفلسفية وتتوارى، ومن هنا كانت الفلسفة عند فتجنشتين نشاطاً علاجياً Therapeutic. يقول فتجنشتين إن «معظم القضايا والأسئلة التي كتبت عن أمور فلسفية، ليست كاذبة، بل هي خالية من المعنى. فلسنا نستطيع إذن أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل وكل ما يسعنا هو أن نقرر عنها أنها خالية من المعنى، فمعظم الاسئلة والقضايا التي يقولها الفلاسفة إنما تنشأ عن حقيقة كوننا لا نفهم منطق لغتنا (فهي أسئلة من نفس نوع السؤال الذي يبحث فيما إذا كان الخير هو نفسه الجميل على نحو التقريب) وإذن فلا عجب، إذا عرفنا أن أعمق المشكلات ليست في حقيقتها مشكلات على الاطلاق»[١٠].
ولا تختلف وظيفة الفلسفة عند فتجنشتين كما هي معروضة في «الرسالة» عنها في كتاباته

(٩) لودفيج فتجنشتين: رسالة منطقية فلسفية، ترجمة د. عزمي إسلام، مراجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، الفقرة١١٢، ٤، ص ٩١.
(١٠) المرجع السابق، الفقرة ٠٠٣، ٤، ص ٨٣.

المتأخرة. فنراه يقول في «الفحوص الفلسفية»: «يتم حل المشكلات ـ لا بتقديم حقائق جديدة، بل بترتيب ما سبق أن عرفناه. فالفلسفة معركة ضد افتتان عقولنا باللغة»[١١].

(٦) إلى جانب هؤلاء الرواد الثلاثة للفلسفة التحليلية توجد اتجاهات أخرى لعل أشهرها هي حركة الوضعية المنطقية، التي شكلت جماعة ڤينا معظم أفكارها. ضمت الوضعية المنطقية عدة أسماء من بينها «شليك» مؤسس جماعة ڤينا و«فايزمان» (الذي أخذ في تفكيره المتأخر بموقف قريب من موقف ڤتجنشتين المتأخر ومدرسة أكسفورد) و«كارناب» و«فايجل» و«كرافت» و«جودل» و«كاوفمان» و«آير» وغيرهم. وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر بين فلاسفة الوضعية المنطقية، فإنهم قد اتفقوا على عدة مبادئ، تمثل المحاور الرئيسية التي ترتكز عليها حركتهم الفلسفية، وأهمها:

١ ـ الفلسفة تحليلية.

٢ ـ الفلسفة علمية.

٣ ـ القضايا تحليلية أو تركيبية.

٤ ـ الميتافيزيقا لغو.

وتنتج هذه المحاور الأربعة عن تصور معين لوظيفة اللغة وكيفية عملها. لقد ميز الوضعيون المناطقة بين وظيفتين رئيسيتين للغة، إحداهما هي الوظيفة المعرفية التي تستخدم اللغة فيها كأداة تشير إلى وقائع وأشياء موجودة في العالم الخارجي، ولا تزيد مهمة اللغة بذلك على أن تجيء تصويرا لهذه الوقائع وتلك الأشياء. أما الوظيفة الثانية للغة فهي الوظيفة الانفعالية ومفادها أن الانسان قد يستعمل اللغة أحيانا للتعبير عن مشاعر وانفعالات قد تضطرب بها نفسه كما هو الحال عند الشاعر مثلاً، ويدخل في إطار هذه الوظيفة استعمالات معينة للغة تشغل بعض الفلاسفة وتتمثل في العبارات التي تعالج مسائل الأخلاق والميتافيزيقا والجمال. ولو اكتفى فلاسفة الوضعية المنطقية بالتمييز بين وظيفتين للغة وبالتالي بين نمطين من العبارات دأبت الفلسفة الكلاسيكية على الخلط بينهما، ما كان هناك مشكلة، ولوقف تاريخ الفلسفة تجاه هذا التمييز بالتقدير والاجلال. ولكن هؤلاء الفلاسفة أصروا على أن العبارات التجريبية هي العبارات ذات المعنى

---

(١١) Wittgenstein, L. Philosophical Investigations, Translated by G. E. M. Anscombe, Basil Blackwell, Oxford, 1963, part 1, sec. 109.

- بالاضافة إلى قضايا تحصيل الحاصل - وحذفوا كل ما عداها من عبارات من دائرة المعنى مثل عبارات الميتافيزيقا والأخلاق والجمال بحجة أننا لا نجد لها من وقائع العالم ما تطابقه. وتحددت بالتالي مهمة العبارة ذات المعنى في وصف أو تصوير حالة من حالات الوجود الخارجي، ثم يجيء الحكم على هذه العبارة بعد ذلك بالصدق أو بالكذب بناء على قابلية هذه العبارة للتحقق. وإذا أراد الفيلسوف أن يجعل اللغة موضوعاً لبحثه، فليس أمامه سوى اللغة في هذه الوظيفة المعرفية مضافاً إلى ذلك البحث في العبارة اللغوية من حيث بنيتها ومعناها.

(٧) غير أن هذا التصور للغة من حيث هي موضوع للبحث الفلسفي يطرح مشكلة مفادها: ما الذي يمكن أن نفعله بكل أنواع العبارات الأخرى التي لا تقوم بوصف الوجود الخارجي، وليس لها صلة البتة بالصدق والكذب؟ ماذا نحن فاعلون بالجمل الطلبية (بالأمر والنهي)، والجمل الاستفهامية، وغيرها من الجمل؟ إن هذه الجمل غير قابلة للتحقق، فهل يصح الحكم عليها بأنها خالية من المعنى؟

الجواب عند فتجنشتين المتأخر بالنفي. لقد ذهب فتجنشتين في «الرسالة» إلى أن وظيفة اللغة المشروعة فلسفياً هي التسمية أو الوصف أو الاشارة، وترتب على هذا تصور معين للمعنى مفاده أن معنى أية كلمة هو الشيء الذي تمثله أو تشير إليه، والاسم يعني الشيء والشيء هو معناه. غير أنه في كتاباته المتأخرة قد أضطر إزاء تنوع استعمالات اللغة واختلافها إلى اصطناع حيلة جديدة هي ألعاب اللغة. ورفض تقسيم المناطقة للجملة إلى ثلاثة أنواع هي التقرير والاستفهام والأمر بحجة أن هناك أنواعا مختلفة لا تحصى من الاستعمال للجمل والكلمات، وانبثقت عن هذا نظرية الاستعمال التي فحواها أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة.

أما جواب مدرسة أكسفورد على السؤال المطرح فقد جاء بالنفي أيضاً. ولكن، ما هي مدرسة أكسفورد، وما منحاها في البحث؟ كان فتجنشتين يحاضر في كمبردج منذ عام ١٩٣٠ وقد حاول في هذه الفترة التخلص من بعض الأفكار التي طرحها في «الرسالة» داعياً في الآن ذاته إلى أفكار أخرى كانت بمثابة إرهاصات لأفكاره المتأخرة. وتأثر مجموعة من فلاسفة كمبردج الشبان بهذه الأفكار تأثراً كبيراً والتفوا حول فتجنشتين على

هيئة مدرسة عرفت باسم مدرسة كمبردج. ومن أبرز فلاسفة هذه المدرسة «ويزدوم» J. Wisdom الذي طور فكرة فتجنشتين عن الفلسفة بوصفها نشاطاً علاجياً إلى أبعد الحدود، ومن بين أعضائها أيضاً «مالكولم» N. Malcolm و «بول» G. A. Paul و «ليزرويتز» M. Lazerowitz و «انسكومب» G. E. M. A. Anscombe و «فايزمان» F. Waismann.

غير أن مركز الاهتمام الفلسفي في انجلترا قد تحول بعد وفاة فتجنشتين من كمبردج إلى أكسفورد تحت ريادة «أوستن» J. L. Austin و «رايل» G. Ryle وسار في ركابهما «ستراوسون» P. F. Strawson و «هيرت» H. L. A. Hart و «هامبشير» S. Hampshir و «تولمن» S. E. Toulmin و «هير» R. M. Hare و «نويل سميث» P. Nowell-Smith و «أشعيا برلين» I. Berlin و «وارنوك» G. Warnok وشكلت كتابات هؤلاء جميعاً الحركة الفلسفية التي عرفت باسم «مدرسة أكسفورد» أو «فلاسفة أكسفورد» أو «فلسفة اللغة العادية».

لقد أثيرت في العقد الخامس من القرن العشرين مسألة دار بشأنها نقاش طويل داخل أكسفورد وخارجها على حد سواء تتمثل في السؤال عما إذا كانت أعمال هؤلاء الفلاسفة تشكل حركة من نوع ما. على أن هذا السؤال لم يشغل هؤلاء الفلاسفة كثيراً أو لعله لا يشغلهم تماماً، وعندما يطرح ينكرون أنهم يشكلون حركة بالمعنى الذي تكون فيه الوضعية المنطقية ـ مثلا ـ حركة فلسفية. حتى أن رايل ينكر أن تكون هناك أية وحدة أساسية فيما بينهم. ومن ناحية ثانية، يجد أوستن قدرا من وحدة الإجراء بين بعضهم. ولكنهم في ممارستهم الفلسفية لا يحفلون بما إذا كان عملهم يشكل حركة، أو وحدة، أو حتى مجرد تشابه عائلي، أم لا يشكل. واهتمامهم الرئيسي هو حل مشكلات فلسفية جزئية محددة، ويتجنبون مناقشة ما وراء الفلسفة. ويرفضون الشعارات العامة من قبيل «الفلسفة هي البناء المنطقي للغة» أو الشعارات المحددة مثل «معنى القضية هو منهج تحقيقها»[١٢].

ولكن، ما هي المصادر التي قامت عليها فلسفة أكسفورد؟ يمكن التماس ثلاثة مصادر أساسية معترف بها لهذه الفلسفة على النحو التالي[١٣]:

---

(١٢) Weitz, M., «Oxford Philosophy», Philosophical Review, Vol. LXII, 1953, p. 187.

(١٣) Ibid, p. 189.

١ ـ أعمال كل من «برتشارد»[١٤] Prichard و «روس» Rose[١٥] وذلك لعنايتهما بالخواص اللغوية للمسائل الأخلاقية.

٢ ـ كتابات فتجنشتين المتأخر وويزدوم وبرايس Price[١٦] ورايل لأنهم قادوا الثورة ضد الفلسفة التقليدية في أكسفورد في أواخر العقد الثاني من هذا القرن.

٣ ـ مجموعات المناقشة الأسبوعية التي كانت تضم عدداً من أساتذة أكسفورد الشبان وخاصة أوستن وبرلين.

ويعتبر المصدر الثالث أكثر هذه المصادر أهمية فيما يرى برلين. إذ يقول: لقد نشأ الاتجاه الفلسفي ـ الذي عرف فيما بعد باسم مدرسة أكسفورد ـ بصورة أساسية في المناقشات الأسبوعية التي كانت تدور بين جماعة قليلة العدد من فلاسفة أكسفورد الشبان ـ كان أكبرهم سناً في السابعة والعشرين ـ وبدأ ذلك في العام الجامعي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧[١٧] وفي آخر صيف ١٩٣٦ اقترح أوستن أن نعقد مناقشات فلسفية دورية حول الموضوعات التي تشغلنا ويحفل بها معاصرونا من فلاسفة أكسفورد. وأراد أن تلتقي المجموعة على نحو غير رسمي، وبدون أي تفكير في نشر نتائجنا (حتى لو توصلنا إلى أية نتائج) واتفقنا على أن ندعو آير وماك ناب Mac Nabb ووزلي Woozley الذين كانوا يدرسون الفلسفة في أكسفورد عندئذ. وانضم إلى هؤلاء ستيوارت هامبشير وماك كينون Mackinnon. وبدأت اللقاءات في وقت ما من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ (وأظن في ربيع سنة

---

(١٤) هارولد آرثر برتشارد (١٨٧١ ـ ١٩٤٧): استاذ كرسي هوايت للفلسفة الأخلاقية بجامعة أكسفورد وكان أبرز أعضاء الحركة الواقعية التي قامت بتلك الجامعة والتي كان كوك ولسون زعيماً لها. ومن كتاباته «نظرية المعرفة عند كانط» ١٩٠٩. وكان لبحثه «هل تقوم الفلسفة الأخلاقية على خطأ؟» ١٩١٣ أثر كبير في احياء الأخلاق الحدسية، وله أيضاً كتاب «الواجب والجهل بالواقع» ١٩٣٢.

(١٥) وليم دافيد روس (١٨٧٧ ـ ١٩٤٠) كان عميداً لكلية أوريل بجامعة أكسفورد. عرف أكثر ما عرف باهتمامه بفلسفة أرسطو، إذ أن طبعاته لكتب أرسطو في «الميتافيزيقا» و «الطبيعيات» و «التحليلات» مع الشرح والتحليل تعتبر من أكثر الاعمال أهمية عن أرسطو في القرن العشرين. زد على هذا رجوع الفضل إليه أكثر من غيره في صياغة الأخلاق الحدسية صياغة جديدة في العصر الحديث. ومن كتاباته «الفعل الصواب والفعل الخير» و «أساس الأخلاق».

(١٦) هنري هابرلي برايس (المولود في ١٨٩٩) فيلسوف انجليزي، استاذ كرسي ويكم للمنطق، وزميل بنيوكوليدج بجامعة أكسفورد. حقل أكثر ما حقل بموضوع الإدراك الحسي وفلسفة العقل. ومن مؤلفاته «الإدراك الحسي» و «التفكير والخبرة».

(١٧) Berlin, I.«Austin and The Early Beginnings of Oxford philosophy», in Essays on J. L. Austin, by Berlin, I, (and others), The Clarendon press, Oxford, 1973, p. 1.

١٩٣٧) وجرت هذه اللقاءات في يوم الخميس من كل أسبوع في حجرات بكلية أول سولزAll souls بعد الغداء، واستمرت ـ مع فترات انقطاع قليلة ـ حتى صيف عام ١٩٣٩. وكان عدد الموضوعات الرئيسية المطروحة للمناقشة والبحث أربعة هي:

١ ـ الادراك الحسي؛ نظريات عن المعطيات الحسية كما ناقشها برايس وبرود.

٢ ـ الحقائق الأوليةA priori، أعني القضايا التي ظهر أنها صادقة أو كاذبة بالضرورة، ومع ذلك لا يبدو أنها قابلة للرد إلى قواعد أو تعريفات.

٣ ـ التحقق والسمة المنطقية للعبارات غير الواقعية التي كان يطلق عليها في تلك الأيام اسم الافتراضات التي لم يتم التحقق منها أو اللاوقائع.

٤ ـ معرفتنا بالعقول الأخرى(١٨).

وثمة مصدر آخر نادرا ما يشار إليه مع أنه من المصادر الهامة لفلسفة أكسفورد: إنه برتراند رسل. فقد كانت مهاجمة رسل «اللعبة المفضلة» في أكسفورد الأمر الذي أدى إلى نسيان ما أسهم به في تشكيل التصور الرئيسي لفلسفة أكسفورد. فلو قارنا ـ على سبيل المثال ـ كتاب رسل «معرفتنا بالعالم الخارجي» بكتاب رايل «مفهوم الذهن» ـ وكلاهما قمة في بناء فلسفة بطريقتين مختلفتين ـ لوجدنا انهما يقومان على تصور واحد للفلسفة من حيث المنطق. إن التهكم الأساسي في «مفهوم الذهن» هو تقريباً تفنيد آراء رسل رأيا رأيا. والمنطق ـ فيما يرى رايل ـ هو أساساً توضيح المفاهيم واستعمال التعبيرات. وتفضي متابعته ـ من بين ما تفضي إليه ـ إلى إنكار النظرية الرئيسية في كتاب «معرفتنا بالعالم الخارجي» بقدر ما يمثل هذا الكتاب نسخة معدلة من التقليد الديكارتي. إن ما فعله رايل في «مفهوم الذهن»، وهو ما فعله جميع فلاسفة أكسفورد هو أنهم قد أخذوا بصورة جادة ـ وبطريقة ما كان يحلم بها رسل ـ نصحه بالبحث عن الجذور المنطقية للنظريات. وما كشفوا عنه النقاب ـ وبخاصة في تربة لحديقة متنوعة المفاهيم، وعكس ما زعم رسل وجوده ـ هو الذي أقام بينه وبينهم الاختلافات الشاسعة(١٩).

لقد اعتقد فتجنشتين وفلاسفة أكسفورد بأن ثمة شيئاً ما خطأ في مناهج الفلاسفة السابقين وأن المنهج الصحيح لحل المشكلات الفلسفية لا بد أن يتضمن دراسة دقيقة

(١٨) Ibid, p. 9

(١٩) Weitz, M., op. cit., pp. 189-190

لمنطق اللغة. والحقيقة أن هذه النقطة عرضة دائماً لسوء الفهم «ذلك أن أي فيلسوف يستعمل منهجاً جديداً من شأنه أن يعطي - على الأرجح - انطباعاً بأنه في الواقع لا يمارس فلسفة على الأطلاق، بل يمارس موضوعاً آخر، موضوعاً يمثل في ذهنه أحياناً موقع الفلسفة. والناس يميلون إلى هذا الانطباع خصوصاً حينما يكون ذلك الموضوع الأخر هو اللغة. فشيء ما سطحي مثل دراسة اللغة كيف يستطيع أن يقودنا إلى حل أي من المشكلات الفلسفية العميقة؟»(٢٠)

غير أن اللغة التي حفل فلاسفة أكسفورد بفحص منطقها هي اللغة العادية، وذلك على خلاف رسل والوضعيين المناطقة الذين حاولوا الاستعانة بلغات اصطناعية ذات صياغة صورية عالية، وهذا يعني اختيار فلاسفة أكسفورد لنقطة بداية مختلفة. فقد اقتنع هؤلاء الفلاسفة بصورة واضحة أن المرء عندما يقرر التفلسف يجب عليه أن يبدأ حيث يكون أفضل منْ البدء من أي مكان آخر. وياشد ما يغرينا أن نترك المرء حيث هو، ونتطلع إلى قفزة نحو نقطة بداية معينة تبدو واعدة أكثر. «فالمفكرون الدينيون - على سبيل المثال - متلهفون على البدء من الله، أو على الأقل متلهفون للوصول إليه بأسرع ما يمكن طالما أن كل شيء آخر في نظرهم يعتمد عليه جل شأنه. ويروم التجريبيون البدء بمعطيات الادراك الحسي، طالما أن تلك المعطيات هي وحدها القادرة على إقامة صحة الحقائق حول عالم الخبرة. أما الرياضيون المناطقة فإنهم تواقون إلى البدء بالكيانات المجردة التي تشكل عالمهم المختار، طالما أنهم على يقين أنه في هذه الحدود فقط يمكن تفسير أي شيء تفسيراً دقيقاً»(٢١).

ولكن، كيف نفترض الوصول من حيث نكون إلى نقطة بداية معقولة إلى حد بعيد، وكيف ندرك أنها النقطة الصحيحة التي يجب أن يقع عليها الاختيار من بين نقاط كثيرة؟

إن كل فلسفة تقدم إجابتها، ويتم تحديد الاجابة عن طريق الافتراضات الخاصة أو الركائز التي تقوم عليها هذه الفلسفة، والتي هي مرفوضة من أية فلسفة أخرى تعارضها.

---

(٢٠) Pears, D. «Wittgenstein and Austin», in British Analytical Philosophy, edited by Williams, B, and Montefiore, A. Routledge & Kegan Paul, London. The Humanities press, New York, 1971, p. 17

(٢١) Burtt, E. A. In Search of Philosophic understanding, George Allen & Unwin LTD, london, 1967, p. 40

وهكذا يجد الانسان نفسه أمام خيارات متباينة ولا يعرف أيها أقرب إلى الصواب. وهنا يتقدم فيلسوف اللغة العادية ناصحاً لنا بأن نعرض عن هذا الجدل الفلسفي وأن نبدأ تواً من حيث نكون، ومعنى هذا أن نطرح التعريفات المثالية الكلمات الرئيسية في المشكلة موضع البحث، ثم نفحص الاستعمال العادي لهذه الكلمات كما يجري في الحياة اليومية. وستجد أنها أكثر تنوعاً في استعمالاتها وتضع كثيراً من التمييزات البالغة الدقة التي طالما غفل الفلاسفة عن ادراكها. ولعل مرجع هذا أن كلا منا يتقاسم صورة الحياة، في مجتمعه، ونستعمل من أجل التواصل بيننا وسائل اللغة التي تواضعنا عليها. وعندما ندرك هذا يصبح واضحاً أن الدروس المتنوعة والتمييزات الدقيقة التي تم اثباتها بشكل موثوق به من خلال استعمال اللغة هي دروس وتمييزات مدخرة الآن في هذه الاستعمالات العادية للكلام، ولا يمكن تجاهلها أو الانحراف عنها طالما أن تفكيرنا الخاص مرتبط بما تواضعنا عليه في اللغة.

إن فيلسوف اللغة العادية على ثقة أنه عندما يتحول تفكير المرء بهذه الطريقة من التعريفات المثالية، أي الاستعمالات العادية لها، فلا شك أنه سيدرك تنوعاً كبيراً للطرق التي يتم بها استعمال الكلمات، وسيدرك الافتراضات التي تكمن خلف الانحرافات الفلسفية عن هذه الطرق، والتي ستبدو خاطئة وغريبة عند افتضاح أمرها.

إذا كان الوضعيون المناطقة قد نظروا إلى الوصف (أو التقرير) على أنه الوظيفة النموذجية الجديرة بالبحث الفلسفي، وحاولوا بالتالي أن يجعلوا من العبارة التقريرية قالباً تُقَدُّ عليه عنوة كل صور التعبير اللغوي بحجة أن هذه العبارة هي وحدها ذات المعنى وفقاً لمبدأ إمكانية التحقق للمعنى، فإن فلاسفة أكسفورد قد نظروا إلى الوصف بوصفه وظيفة واحدة من بين وظائف كثيرة متنوعة للغة؛ إذ توجد إلى جانب الوصف أغراض أخرى تستخدم من أجلها اللغة. فهناك السؤال، والأمر والنهي، والتعجب، والرجاء، وهلم جرا. الأمر الذي دفع فلاسفة أكسفورد إلى البحث عن قواعد الاستعمال، أي القواعد التي تحكم استعمال هذه العبارة أو تلك تحت هذا الظرف المعين أو ذاك، ومن ثم راحوا يبحثون عن المعنى في حدود الاستعمال اللغوي، وانتهوا إلى نظرية جديدة هي نظرية الاستعمال للمعنى.

ومن أجل إبراز هذه النظرية الجديدة قسمنا البحث إلى خمسة فصول تسبقهم مقدمة وتلحقهم خاتمة، عالجنا في الفصل الأول بعض المواقف الفلسفية من اللغة العادية ثم

أتبعناها بموقف فلاسفة أكسفورد منها. ثم ناقشنا في الفصل الثاني تصور فتجنشتين المبكر والمتأخر لوظيفة اللغة وقد أخذ في التصور المبكر بالنظرية التصويرية التي نتجت عنها نظرية في المعنى شبيهة بنظرية التحقق عند الوضعية المنطقية. غير أن فتجنشتين عندما حاول تجنب القصور الذي تبدى له من النظرية التصويرية عثر على حيلة جديدة هي ألعاب اللغة التي تمثل التصور المتأخر عنده لوظيفة اللغة، وهو التصور الذي نتجت عنه نظرية في المعنى استلهم بعض فلاسفة أكسفورد كثيراً من أصولها. وحاولنا في الفصلين الثالث والرابع عرض تصور فلسفة أكسفورد لتحليل وظيفة اللغة ممثلاً في المنطوقات الأدائية وأفعال الكلام عند أوستن وأصداء هذا التحليل عند بقية فلاسفة أكسفورد ثم أثره على مَنْ سار في ركابهم من فلاسفة اللغة. وأخيراً ناقشنا في الفصل الخامس نظرية التحقق للمعنى وكشفنا عن بعض مثالبها حتى نمكِّن لنظرية الاستعمال للمعنى التي تمثل حجر الزاوية في فلسفة أكسفورد.

ولم يكن في وسعنا أن نأتي في هذه الدراسة على شتى جوانب فلسفة أكسفورد؛ إذ أن هذا أمر دونه زحزحة الجبل، وحسبنا اختيار بعض الجوانب التي تكشف بوضوح عن مكنون تلك الفلسفة، وتحقق الهدف المرجو من البحث. ولا يفوتنا ما في دراستنا من نقائص سنسعد كثيراً بمَنْ يضع يده عليها، ولمن يجد طريقة لتكملتها سنكون من الشاكرين.

ويطيب لي أخيراً أن أزجي الشكر جزيلاً والثناء جميلاً لاستاذي الدكتور محمد مهران شكراً وثناء أعبر بهما عن امتناني وعرفاني برعاية قد أحاطني بها منذ أن وجهني إلى دراسة هذا الموضوع ولا يزال، كما أتقدم بعظيم تقديري لاستاذي الدكتور محمد مدين الذي تفضل عليَّ بحسن توجيهه وإرشاده. وعلى الله قصد السبيل.

محتويات البحث